افتتاحية العدد[1]

أرئيل هندل وإيرز مغور

عُرض فيلم "المستوطنون" من إخراج شمعون دوتان في منتصف سنة ٢٠١٦ . بدت ردود أفعال الجمهور الغَفير الذي حضر إلى صالة العرض كما هو متوقع: فقد علت بين صفوفه صهصهات عند مشاهدة أشخاص وهم يُؤْثِرون اليهودية على الديمقراطية في معرض مقابلتهم في الفيلم؛ وأمام تأوُّه مزارع فلسطيني أقيمت على أرضه نقاط استيطانية غير قانونية؛ والإيماء بالرأس علامة الموافقة مع أقوال ممثلي اليسار النقدي؛ واجتاحت القشعريرة الجمهور حين أصغى إلى أقوال أب شاب من النقطة الاستيطانية "إيش كودِش" (نار مقدَّسة) لابنه الصغير وهو يعده بأنهما سيذهبان سوية حين يكبر ليضرب العرب؛ وعلت ضحكاته من صور نمطية جدًا للمستوطنين إلى درجة أن برنامج "إيرتس نهديرت" (بلاد رائعة) لم يكن لينجح في إنتاج صور مشابهة لها.

تفيدنا الصورة التي خرج بها الفيلم أنَّ جميع المستوطنين يقيمون بين مستوطنة عُفرا وكدوميم ومستوطنة بات عين (ب) ومستوطنة إيتمار (د). يبدو الظهور الضعيف وغير المنتظم للمستوطنين الآخرين جزئيًا ومتلاعبًا به، فالمستوطن العلماني الوحيد الذي أُجريت معه مقابلة في الفيلم، ظهر كشخصية غير معيارية – إذ انتقل هو وأسرته للإقامة في مستوطنة "تقوع" بغية الحصول "على غرفة نوم بحجم الصالون" فقط، كما جاء في أقواله. وبالمجمل، فإنَّ رسالة الفيلم، التي يمكن العثور عليها في غالبية الصور النمطية الشعبية للمستوطنات، مستمدة من أدبيات عديدة بدءًا من كتاب عكيفا إلدار وعديت زرطال "أسياد البلاد»[2] الضخم وانتهاءً بمقالات أوري شفيط وغادي طاوب الصحفية المنشورة في صحيفة **هآرتس** – وهي رسالة مفادها أننا أمام اجتياح مخلوقات فضائية: إذ تصوِّر هذه الأدبيات المستوطنين بوصفهم مخلوقات غريبة الأطوار وشاذة ومختلفة اختطفت إسرائيل الاعتيادية وساقتها إلى عالم المغامرات غير محسوبة العواقب.

يعاني طرح المخلوقات الفضائية هذا من مشاكل جوهرية. ولا نقتصر ذلك على كونه طرح خاطئ فعلاً فقط، بل إنه طرح ضار سياسيًا لأنه يختزل النقاش ويتجاهل العديد من العناصر البنيوية القائمة

1 يعتبر العدد الخاص الحالي ثمرة ورشة عمل دولية بحثية حملت العنوان "المستوطنات في الضفة الغربية: زوايا نظر جديدة" انعقدت أعمالها في معرض شهر حزيران من سنة ٢٠١٤ في مركز منيرفا للآداب في جامعة تل أبيب بالتعاون مع معهد ڤان لير في القدس والمركز الفرنسي للأبحاث في القدس (CRFJ). نتقدم بالشكر الجزيل لجميع المشاركين في تنظيم ورشة العمل البحثية والعمل على إصدار العدد الحالي.

2 عكيفا إلدار وعديت زرطال، **أسياد البلاد: المستوطنون ودولة إسرائيل ١٩٦٧- ٢٠٠٤**، ترجمة عليان الهندي، رام الله ٢٠٠٦ [صدر بالعبرية سنة ٢٠٠٤ في أور يهودا عن دار النشر كنيرت، زمورا بيتان، دبير].

خلف نمو المستوطنات وتأثيرها المتواصل. بدايةً، لا ينتمي غالبية المستوطنين إلى ما يطلق عليه تعبير «المستوطنون المؤدلجون» (والمتطرفون وغريبو الأطوار منهم فقط ظهروا في الفيلم). إنَّ عدد المستوطنين المنتمين إلى التيار الديني القومي المسيحاني لا يصل إلى بضع عشرات الآلاف فقط. وللمقايسة، يقيم في مستوطنة معاليه أدوميم نحو ٤٠،٠٠٠ نسمة، ويصل عدد سكان المستوطنة الحريدية بيتار عيليت إلى نحو ٦٠،٠٠٠ نسمة. وذلك من دون احتساب ٢٠٠،٠٠٠ نسمة من الإسرائيليّين المقيمين في شرق القدس.

يسعى اسم الفيلم «المستوطنون» إلى تعزيز الادعاء بأنَّ الشخصيات المعروضة في الفيلم هم المستوطنون الحقيقيون، القوة المحرّكة القائمة خلف حركة ما يربو عن ٦٠٠،٠٠٠ يهودي يقيمون في الأراضي التي احتلت قبل خمسة عقود من الزمان. إنَّ النزعة إلى التأكيد على الجوانب الشخصية لظاهرة الاستيطان في الفيلم واضحة. إذ إنَّ صور الأشخاص المتحمّسين تظهر بصورة أفضل من صور لوثائق أرشيفية ومواد مأخوذة من ميزانية الدولة. إلاَّ أنَّ اقتصار التركيز على الدافع وحده، من دون الحديث عن الظروف المؤسّساتية والسياسية التي أتاحت الفرصة لتحقيق هذا الاستيطان، يحيلنا إلى نقاش سطحي ويحجب عن الجمهور الرؤية الثاقبة الأوسع.

لا تعيش الغالبية العظمى من المستوطنين في الضفة الغربية حقيقةً بسبب الحماس المسيحاني – ولا بسبب الترف الزائد – وإنما ببساطة بسبب إمكانية شراء بيت هناك وانسداد الأفق أمام إمكانية الشراء في مكان آخر، إذ يتم هناك توفير مصادر للتمويل وقروض ومنح مريحة جدًا؛ وبسبب وجود بلدات عصرية وجميلة ومخطّط لها بصورة جيدة هناك (وليس مجرد بيوت متنقلة وخيام كما يعرضها الفيلم) وتتمتّع ببنًى تحتية متطوّرة ومؤسّسات تربوية؛ إضافة إلى وجود مجتمع محلّي داعم هناك؛ أو ربما كذلك بسبب أنَّ انتهاك الخط الأخضر لا تعتبر في نظرهم مسألة جوهرية. زد على هذه الخصائص، أنه خلافًا لبلدات الأطراف البعيدة والمستضعفة القائمة داخل إسرائيل، فقد أقيمت غالبية المستوطنات بجوار مناطق صناعية (مثل: ميشور أدوميم وبَرْكان)، وتبعد تلك المستوطنات المأهولة مسافة قصيرة عن مراكز التشغيل في المنطقة الحضرية «غوش دان» والقدس.

كذلك هو الحال في الخطاب الأكاديمي – الذي توقّف عند الجانب الاقتصادي المذكور آنفًا – فلا زلنا نشهد التأكيد الكبير غير الملائم لواقع الحال على المستوطنات الأيديولوجية وخاصة على حركة غوش إمونيم، والتي بالرغم من اندثارها كحركة نشطة منذ ثلاثة عقود، إلاَّ إنها لا تزال تعتبر في هذا الخطاب الأكاديمي حتى وقتنا الراهن الرافعة المركزية والنقطة المرجعية بين باحثي المستوطنات. وتجدر الإشارة إلى حقيقة تبدو مفاجئة جدًا تتلخّص في شحّ البحث الأكاديمي النسبي حول المستوطنات. وإن ابتغينا الدقة، فإنَّ جميعنا يتحدث عن المستوطنات ولكن الأقلية منا تدرس المستوطنات ذاتها. تظهر المستوطنات في الخطاب الأكاديمي بوصفها عثرة أمام التوصّل إلى حلّ سياسي متّفق عليه (في أقسام العلاقات الدولية)، وانتهاكًا للمعاهدات الدولية (في كليات الحقوق)، ومصدرًا للتوترات السياسية الداخلية بين «الحمائم» و«الصقور» (في أقسام العلوم السياسية والتاريخ)، أو مركز للقوى الاقتصادية والسياسية (في أقسام علم الاجتماع). وقد ظهر تيار إضافي، خاصة بين صفوف علماء الاجتماع النقديّين، يشير إلى التواصل بين طرفي الخط الأخضر على المستويين التزامني (Synchronic) والتاريخي (Diachronic). يرى هذا التيار بالمستوطنات استكمالاً مباشرًا عمليًا لمشروع الاستيطان الصهيوني السابق للمنعطف الذي تشكّل سنة ١٩٦٧. من دون التقليل من أهمية هذه الأبحاث، فإنَّ القاسم المشترك بين غالبيتها هو التوجّه

الذي يرى بالمستوطنات وحدة متجانسة يغيب عنها التنوّع الداخلي الهام – والتي تتجسّد في كلمة «المستوطنات» بصيغة الجمع وبلام التعريف – وكما ذكر آنفًا فإنَّ القوى المحرّكة لها هي قوًى مسيحانية نشطة (حركة غوش إمونيم والحركات المتابعة لدربها)، أو قوًى اقتصادية خاملة (الطبقات الدنيا المنساقة جبرًا وراء الأيديولوجية الدينية، وجُلّ ما تبتغيه هو شراء بيت رخيص وكبير).

بطبيعة الحال، فإلى جانب هذه القائمة، هنالك بعض الحالات الشاذة، وعلى رأسها يمكننا الإحالة إلى دراسة ميرون بنفستي والمشاركين معه في المشروع الدراسي West Bank Data Project،[3] إضافة إلى دراسات داڤيد نيومان ويوڤال برتغالي الصادرة في الثمانينيات والتسعينيات.[4] نشهد في العقد الأخير ظهور اهتمام بدراسة المستوطنات – وهو ظهور صادر عن ما بات يطلق عليه تعبير "دراسة الاحتلال" – إلاَّ أنه يبدو أنَّ هذه الدراسات بقيت وحيدة ولم تتبلور لتشكّل حقلاً أكاديميًا متماسكًا يحظى بالاعتراف والتأثير.[5]

يتضمّن العدد الحالي دراسات محتلنة حول المستوطنات في الضفة الغربية بهدف التفكّر بها عبر منظور يتخطّى المشهد البحثي السائد وتعزيز إطار تحليلي بديل يقوم اصطلاح "التطبيع" في مركزه. يمكننا أن نشير إلى دلالتين لاصطلاح "التطبيع". تشير الدلالة الأولى إلى المستوطنين بوصفهم سكانًا عاديّين بالفعل، كسكان تل أبيب أنفسهم، بحيث تكون مستوطنة عفرا مجرد بلدة من بين جملة البلدات الأخرى العديدة المنتشرة في أنحاء دولة إسرائيل الحديثة. أما الدلالة الثانية فتشير إلى الرسالة التي يحملها المنتمون إلى معسكر غوش إمونيم والحركات المتابعة لدربها والتي تتلخّص في «احتلال القلوب» بحيث ينجح هؤلاء في مشروعهم إلى درجة أن يدرك سكان تل أبيب أنَّ الوضع الطبيعي هو الوضع الإيماني وأنَّ قلب الصهيونية والوجود اليهودي–الإسرائيلي يكمن في «يهودا والسامرة». بعبارات أخرى، بينما تتحوّل مستوطنة عفرا في الدلالة الأولى إلى مدينة تل أبيب؛ تتحوّل مدينة تل أبيب في الدلالة الثانية إلى مستوطنة عفرا.

بينما يتخوّف اليسار الليبرالي الإسرائيلي بشكل خاص من الدلالة الثانية – والتي تعني استيلاء حركة قادة الاستيطان في المناطق المحتلة (ييشع) على «هنا» (إسرائيل داخل الخط الأخضر) – نعني التخوّف من التحوّل إلى دولة ثنائية القومية أو التخوّف من التديّن والنزعات المسيحانية القائمة في صلبها والمتجسّدة

3 يُنظر، على سبيل المثال، ميرون بنفستي، ١٩٨٧. **الضفة الغربية وقطاع غزّة: بيانات وحقائق أساسية**، ترجمة ياسين جابر، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع؛ Meron Benvenisti, 1984. *The West Bank Data Project: A Survey of Israel's Policies*, Washington: American Enterprise Institute for Public Policy Research.

4 يُنظر، على سبيل المثال، David Newman (ed.), 1985. *The Impact of Gush Emunim: Politics and Settlement in the West Bank*, London: Croom Helm; David Newman and Juval Portugali, 1987. "Spatial Interaction between Israelis and Palestinians in the West Bank and Gaza Strip," Unpublished Research Report، Ford Foundation; Juval Portugali, 1991. "Jewish Settlement in the Occupied Territories: Israel's Settlement Structure and the Palestinians," *Political Geography Quarterly* 10, pp. 26–53.

5 يُنظر، على سبيل المثال، غادي إلغازي، ٢٠٠٦. "مطركس في بلعين: قصّة الرأسمالية الكولونيالية في إسرائيل في الوقت الراهن"، **نظرية ونقد** ٢٩ (خريف)، ص ١٧٣–١٩١ [بالعبرية]؛ Hadas Weiss, 2011. "Immigration and West Bank Settlement Normalization," *PoLAR: Political and Legal Anthropology Review* 34(1), pp. 112–130؛ إيرز مغور، ٢٠١٥. "الدولة، السوق والمستوطنات: سياسة وزارة البناء والإسكان والانتقال من بؤر مسيحانية، إلى تطوير حضري في مطلع الثمانينيات"، **سوسيولوجيا إسرائيلية** ١٦(٢)، ص ١٤٠–١٦٧.

في شخصية المستوطن. يتناول العدد الحالي الدلالة الأولى تحديدًا والتي تتمثّل في الطمس المركّب لمعالم الخط الأخضر وتحوّل المستوطنات شيئًا فشيئًا إلى جزء لا يتجزأ من الحيّز الإسرائيلي «الطبيعي». إنَّ التطبيع الذي نسعى إلى التفكّر فيه هنا ليس ثمرة مشروع كولونيالي، وإنما سيرورة دائمة، يمكن الإشارة إلى نقطة انطلاقها في سنة ١٩٦٧، وخاصة في القسم الشرقي من القدس، وزحفها لاحقًا إلى بقية أرجاء الضفة الغربية في مطلع الثمانينيات. لم يكن مشروع الاستيطان أبدًا ظاهرة خارجية منفصلة عن إسرائيل في حدود الخط الأخضر. فالمستوطنات ليست «شذوذًا» سياسيًا أو جغرافيًا وإنما هي جزء عضوي من الحيّز الإسرائيلي ومن الخصائص الباطنية التي تطوّرت فيه على مدار السنوات الخمسين الأخيرة. لذلك، لا يمكننا إدراك نمو المستوطنات بمعزل عن المستجدات العالمية كالخصخصة والليبرالية الجديدة، اللتان توغّلتا في الاقتصاد الإسرائيلي؛ وبمعزل عن فهم التوجّه الذي يمثّله مخطّط براڤر والانعزال في «مجتمعات محدّدة» في إسرائيل وفي العالم؛ ومن دون ملاحظة الصورة المركّبة التي تتشكّل من الاختلافات الواسعة والجوهرية بين التيارات الدينية المختلفة؛ ومن دون التوقّف عند التوجّهات الكونية التي تتلخّص في استيراد عمالة رخيصة ومؤقّتة من دول نامية وتأثير ذلك في العلاقات بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين في المنطقة الممتدة بين النهر والبحر، إلى جانب عوامل وظواهر أخرى.

وعليه، يأتي العدد الحالي الخاص، في ذكرى دخول الاحتلال العسكري ومشروع الاستيطان المدني عقدهما السادس، باقتراح للتفكير مجدّدًا، مع الأخذ بالحسبان جميع المستجدات، في موضوع الدراسة ذاته وباللغة البحثية المستخدمة فيه. يدعونا التأكيد على العلاقة القائمة بين الاستيطان في المناطق المحتلة، وبين سيرورات سوسيولوجية وأنثروبولوجية وثقافية وجغرافية واقتصادية واسعة، إلى اعتماد منظور يرى في مشروع الاستيطان موضوع دراسي ضمن البحث المقارن على الصعيد التاريخي وعلى صعيد المقارنة بحالات أخرى في العالم. كلنا أمل أن يوفّر الإطار التحليلي المعروض في العدد الحالي نافذة لدراسات مستقبلية لا ترى بالمستوطنات والمستوطنين ظاهرة شاذة ورجعية في المشهد الإسرائيلي، بل تتيح لنا الاستدلال على نقاط تشابه واختلاف مع ظواهر قريبة، وتساعدنا في التوصّل إلى فهم أعمق للمستوطنات اليهودية في المناطق المحتلة.

*

تستعرض **هنيدة غانم** في المقالة الافتتاحية تاريخ نظرة الفلسطيني إلى الاستيطان اليهودي في إسرائيل/ فلسطين منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. يقترح هذا الاستعراض قلب المنظور البحثي السائد، الذي يقوم على النظرة من الغرب نحو الشرق، وبهذا فإنه يوفّر لنا فرصة لفهم عميق للتحوّلات الطارئة على العلاقات بين سكان فلسطين/ إسرائيل ودلالاتها في سياق أوسط تتضمّن التقلبات السياسية الكونية. تتعقّب المقالة الاصطلاحات المختلفة للمستوطنين اليهود وأماكن المستوطنات التي أقاموها في خطاب السكان الفلسطينيّين، مثل «كبّانية» (المستوطنة اليهودية بلغة الفلسطينيّين قبل عام ١٩٤٨، وكما يبدو فهو اسم مستعار من الإنجليزية بالأصل: camp) و«بؤرة». يوفّر لنا التاريخ اللغوي رسمًا للعلاقات بين الفئتين السكانيتين، ومستوى التعارف بينهما، والعلاقات القسرية والطوعية القائمة في أماكن العمل وفي الحياة اليومية، وكذلك يرسم لنا تاريخ الانقسامات التي طرأت على المجتمع الفلسطيني ذاته وعلاقاته مع التوجّهات الدينية والسياسية في فلسطين/ إسرائيل وخارجها. توضح لنا هنيدة غانم في مقالتها كيف أنَّ كل مرحلة جديدة من مراحل توسّع الاستيطان اليهودي تُسهم في طمس

المرحلة السابقة، وصولاً إلى كيفية إسهام البؤر الاستيطانية العنيفة عمليًا في إضفاء الشرعية، ليس على بيتح تكڤا وتل أبيب فحسب، بل على مستوطنتَي أريئيل وقدوميم أيضًا.

توضح **ريبي غيليس** في مقالتها أنَّ التوتّرات القائمة في المجتمع الإسرائيلي تنعكس جميعها في المستوطنات أيضًا؛ وتقوم المقالة تحديدًا بتحليل النقاش حول المسألة الإثنية كما تبدو من على صفحات صحيفة «نكودا»، وهي صحيفة تصدر في مستوطنة عُفرا وتعتبر الناطق الرسمي باسم حركة غوش إمونيم والحركات المتابعة لدربها. تشير غيليس في مطلع مقالتها إلى أنه على صعيد الخطاب الأكاديمي، فإنَّ «الإثنية تقف عند الحاجز» – وتعني بذلك الفصل بين النقاش الإثني اليقظ داخل الخط الأخضر، و«خطاب الاحتلال» الذي يبدو وكأنه بريء من هذا النقاش. كذلك، توضح لنا أنَّ الاستيطان يعتبر مشروعًا إشكنازيًا بامتياز، وذلك انسجامًا مع الطابع السائد. إلاَّ أنَّ تحليل المقالات المنشورة في صحيفة «نكودا» يتيح لنا إمكانية التقاطع بين الخطاب الداخلي في المستوطنات والروايات المنظمة للمستوطنات بوصفها مشروعًا دينيًا مسيحانيًا، أو مشروعًا طبقيًا، مع الأخذ بالاعتبار الفصل بين أولئك الذين يعتبرون صهيونيّين دينيّين «أيديولوجيّين»، وأولئك الساعين إلى تحسين جودة حيواتهم ويعتبرون «غير أيديولوجيّين». إنَّ التقاطع النقدي بين الخطاب الداخلي، كما ينعكس في صحيفة «نكودا»، وبين التوجّه البحثي يؤثّر في الأدب النظري وفي الفكر السياسي في إسرائيل.

تفحص **لي كهنر** في معرض مقالتها حول المستوطنات الحريدية كيف حدث أنَّ فئة سكانية تعتبر غير سياسية، تشكّل حاليًا نحو ثلث المستوطنين خارج الشطر الشرقي للقدس. تسعى المقالة إلى تحدّي الفصل الثنائي القطب بين «المستوطنات الأيديولوجية» و«مستوطنات جودة الحياة»، والقول إنَّ المستوطنات الحريدية تحتل المكان الوسطي الآخذ بالاتساع بين هذين القطبين، حيث يقوم الواقع المعاش ببلورة الوعي: نادرًا ما نعثر على أسرة حريدية لا يقيم أحد أفرادها خارج الخط الأخضر، وتُنتج هذه الحقيقة في نهاية المطاف وعيًا جيوسياسيًا يمينيًا. تتوقّف المقالة عند مستويات الفصل بين المستوطنات الحريدية وبين محيطاتها، على الصعيدين السياسي الأيديولوجي والأداتي اليومي، ومن هنا فإنها تبحث في تأثير المستوطنات الحريدية في سيرورات الانفتاح والانغلاق الجارية في المجتمع الحريدي في إسرائيل برمته.

يستدعي التساؤل «هل كنت تفضل جارًا حريديًا أم فلسطينيًا» إجابات مفاجئة في المقالتين التاليتين اللتان تركزان على حالات دراسية محدّدة تحمل طابعًا مدينيًا. انطلاقًا من الأرضية النظرية التي اقترحتها هنري لوفيفر (Lefebvre)، يفحص ماركو ألغرا تشكيل الحيّز السيادي للدولة (الدولاني) عبر استعراض نمو مستوطنة معليه أدوميم الواقعة في قلب مثلث من التعريفات: السياسة، التخطيط المهني والحيّز اليومي. كما ذكر آنفًا، يركّز الخطاب البحثي على الجانب الأيديولوجي لمواقع المستوطنات وسكانها ووظيفتها الجيوسياسية في إطار السياسة الاستيطانية الواسعة الساعية إلى التوسّع الأفقي ومنع إنشاء كيان سياسي فلسطيني مستقل. في مقابل ذلك، تفحص مقالة ألغرا كيفية تحوّل هذه المستوطنات تحديدًا إلى حيّز ضامن للطبقة الوسطى – إذ يعتبر حيّزًا يؤمّن إسكانًا ممكنًا ومتاحًا، إلى جانب الأمن والتخطيط الحضري العصري وحياة يومية غنية. يشير فحص العلاقات القائمة بين القدس ومعليه أدوميم إلى مشهد مركّب، حيث تعتبر معليه أدوميم جزءًا من القدس على جميع الصعد الوظيفية (جزءًا من حيّز حاضرة القدس وجزءًا من الحياة اليومية لسكان القدس)، ولكنها مع ذلك منفصلة عن القدس على صعيد الإحساس بالأمان الذي تنتجه. وعلى هذا النحو، وبصورة مفارقة، فإنَّ التهديد المركزي

بعيني سكان معليه أدوميم لا يتمثّل في الفلسطينيّين، وإنما يعتبرون مستوطنة معليه أدوميم الملجأ والمأوى مما يعتبرونه سيطرة حريدية على الحيّز المقدسي، إلى جانب ظواهر حضرية إضافية كالجريمة والنفايات وعدم اليقين.

يركّز كل من **حاييم يعقوبي ووندي فولان** على الجزء الأكثر تجاهلاً في البحث حول المستوطنات – وعلى أقل تقدير في الأبحاث الإسرائيلية – ونعني الاستيطان في الطرف الشرقي من القدس. تعتبر «الأحياء» اليهودية في الطرف الشرقي من القدس، والتي تضم نحو ٢٠٠،٠٠٠ مستوطن يهودي، جزءًا لا يتجزأ من المدينة، وخلافًا للمستوطنين في سلوان أو جبل الزيتون، فإنَّ سكان هذه «الأحياء» لا يعتبرون أبدًا «مستوطنين». تركّز المقالة على التلة الفرنسية – الواقعة في منطقة حيوية، تطل على البلدة القديمة وتربط بين جبل المشارف بطرق رئيسية – وخاصة على ظاهرة آخذة بالتوسّع في السنوات الأخيرة والتي تتلخّص في انتقال فئة سكانية متعلّمة من الفلسطينيّين تتمتع بدخل اقتصادي فوق المتوسّط إليها. تسعى المقالة إلى تسليط الضوء على الحراك الحضري، وفحص الحالة المعاكسة، والتي تتمثّل في انتقال سكان فلسطينيّين إلى مستوطنة يهودية. كما يوضح الكاتبان، فإنَّ مجرد المكانة الحضرية الخاصة للحي/ المستوطنة والمكانة القانونية المنفصلة للسكان المختلفين، تؤمِّن للفلسطينيّين فرصًا غير معقولة في مستوطنات أخرى، بل إنَّ المساعي لضم الطرف الشرقي من القدس سياسيًا وجغرافيًا تحديدًا يضع العراقيل أمام الدولة، في مساعيها لتهويد المنطقة بصورة مطلقة. يقوم يعقوبي وفولان بمناقشة الأبعاد الجيوسياسية للحي والحراك الاجتماعي والاقتصادي في ظل حضور «مستوطنين» فلسطينيّين في مستوطنة يهودية. وعلى هذا النحو، يوضح الباحثان كيف أنَّ فرضيات بشأن شراكة حضرية وشراكة في الحيّز العام تتخذ دلالات جديدة في مدينة تعتبر منقسمة ومختلطة في الآن معًا.

تمثّل مقالة **إيرز تسفاديا** انتقالاً حادًا إلى الوجه المتطرّف الثاني المتمثّل في الانتقال من الأحياء الحضرية والغنية في شرق القدس إلى البؤر الاستيطانية المقامة بين لحظة وأخرى وغير الشرعية على ما يبدو لأول وهلة التابعة لـ«فتية التلال». استنادًا إلى حقل الجغرافيا القضائية البحثي، يقوم تسفاديا بدراسة سيرورات تطبيع البؤر الاستيطانية وسكّانها، ويتوقّف عند فحص العلاقة بين الاستيطان والآمال الإثنو–قومية للسيطرة على الأرض والقانون والشرعية. تتمحور المقالة حول التخطيط غير الرسمي – وهي ممارسة يتم تطبيقها في إقامة البؤر الاستيطانية، والعملية الجارية في السنوات الأخيرة والمتمثّلة في تأهيلها قضائيًا – ويخلص إلى أنَّ هذه البؤر ليست «شاذة»، وإنما هي حلقة ضمن سلسلة حيّزية–قضائية واسعة. تتوقّف المقالة عند النزعات الإثنو–قومية، والدعم الذي تحظى به عملية إقامة هذه البؤر الاستيطانية، واستكتاب الجهاز القضائي، وإخلاء هذه البؤر وهدمها، ومحاولة التعامل مع الضغوط الداخلية والدولية، بوصف جميعها عملية لتشفير التمظهرات الحيزية للقانون وصبغها بطيف الألوان الرمادية. تسعى عملية التشفير هذه إلى تقويض التمايزات القضائية الثنائية المتناقضة لمفهومي القانون والإجرام، وعلى هذا النحو فإنها تقيم منظومة من الأدوات الجديدة لفحص العلاقات المتشعبة بين القضاء والحيّز.

يقوم **أساف هرئيل** في مقالته بفحص المجموعة التي تبدو لأول وهلة مجموعة متماسكة جدًا – ألا وهي مجموعة المستوطنين المنتمين إلى المعسكر الديني الأيديولوجي – ويكشف عن التنوّع القائم فيما بين المنتمين إليها. بينما تركّز غالبية التمثيلات الثقافية والأكاديمية للمستوطنات على السبعينيات وعلى تيار غوش إمونيم، تتتبّع مقالة هرئيل أربع مجموعات معاصرة وتفحص نظرتها لمسائل المسيحانية

والزمن والسياسة العلمانية: التيار غير المسيحاني لمستوطنين صهيونيّين متدينين والمتمثّل في المقالة في سكان مستوطنة ألون شڤوت؛ والحاخام تسڤي يسرائيل طاو وأتباعه والمتمثلين بتيار آخذ في الازدياد يجمع بين المحافظة الدينية والنزعة الرسمية للدولة[6] ويرتبط أشد الارتباط بتيار يتغذّى على الصوفية المسيحانية المستمدة من ثلاث مجموعات أو تيارات فرعية وهي: مدرسة الراب أبراهام كوك، وأتباع الراب يتسحاك غينزبورغ، وأتباع الحاخام مناحم فرومان. في الحقيقة، يُنظر إلى المجموعتين الأخيرتين بوصفهما هامشيتيْن بين جمهور المستوطنين الذين يعزون للاستيطان دلالات إيمانية، إلاّ أنَّ دلالتهما لا تقاس بالضرورة بحجمهما. فكما أنَّ غوش إمونيم كانت حركة صغيرة عند نشوئها، كذلك الأمر بخصوص هاتين المجموعتين اللتان تشهدان ربما على نشوء تمظهرات مسيحانية من المحتمل أن تتعزّز وتتوسّع مع الوقت.

يختتم قسم المقالات في العدد الحالي بمقالة **يعيل شنكار**، التي تفحص ردود أفعال مبدعات ومبدعين من بين المستوطنين على الشرخ الكبير الذي مرّ على حركتهم منذ سنة ١٩٦٧: بدءًا من الانسحاب من غزّة ومدينة جنين وضواحيها حتى أطراف مدينة نابلس جنوبًا (يطلق عليها إسرائيليًا: «شمال السامرة»)، وصولاً إلى هدم ٢٦ مستوطنة وإجلاء ٩،٠٠٠ مستوطن. تعتبر خطّة «فك الارتباط» أحادية الجانب الإسرائيلية التي تقضي إلى الانسحاب من جنوب غزّة، أو عملية «الطرد»، تحقيقًا لكابوس المستوطنين المخيف – ماديًا (إجلاؤهم وهدم بيوتهم)، وكذلك على صعيد الوعي (فشل احتلال البلاد من جهة، وفشل شعار «احتلال القلوب» من جهة ثانية). تركّز المقالة على الأعمال الإبداعية التي تشكّلت خلال فترة تطبيق خطّة «فك الارتباط» مع جنوب غزّة والفترة التي أعقبت ذلك، وتفحص من خلالها تمثيل الاستيطان في السينما والأدب الصادرة عن المجتمع الديني–القومي في إسرائيل. تعرض هذه الأعمال الإبداعية ممارسات مختلفة لتشكيل حيّز المستوطنة، وتعكس أصواتًا مختلفة داخل المستوطنات نفسها. خلافًا للاستيطان الفعلي، فإنَّ الاستيطان الممثَّل (نعني المتخيَّل) معروض غالبًا بوصفه مكانًا مثاليًا تختفي فيه علاقات القوة أو العنف الموجّه ضدّه أو الصادرة عنه. يرى مجتمع المستوطنين بنفسه أقلية، ولكنه ينظر إلى نفسه كذلك على أنه المجموعة المحافظة على القيم الأصيلة للصهيونية. إنَّ التمثيل المركّب لهذا الحيّز – بوصفه حيزًا للحياة اليومية والاعتيادية، ولكنه، إلى جانب ذلك، يعتبر كذلك حيّزًا ساميًا تكمن فيه قيم دينية – يسعى بمفاهيم عديدة إلى طمس الانقسام القائم بين المستوطنين وبين الهوية الإسرائيلية العلمانية، ويسعى في ذات الوقت، كذلك، إلى الحفاظ على إحساس القيادة بين جمهور المستوطنين وعلى هويتهم الذاتية السامية.

*

تسعى المقالات التي يتضمنها العدد الحالي إلى فحص جوانب معينة للاستيطان والمستوطنين: نجاح التطبيع أو إخفاقه، وأوجه الشرخ والانقسام الداخلي، والعلاقات بين سكان الضفة الغربية– اليهود والفلسطينيّين. ولكن علينا أن نتذكّر بداية أنَّ الحديث يدور حول مشروع سياسي متكامل وعظيم القوة برعاية الدولة. يشير **إمطانس شحادة** في تقريره البحثي المفصّل إلى منظومة الميزانيات التي تغذّي مشروع الاستيطان العملاق. يتوقّف التقرير عند تحليل ميزانيات السلطات المحلية التابعة للمستوطنات قياسًا

6 **النزعة الرسمية للدولة** (بالعبرية: مملختيوت): هو توجّه يحترم سيادة الدولة وهيبتها وجملة قوانينها ولا يميل إلى التمرد عليها وعصيان قوانينها وسياساتها.

بميزانيات سلطات محلية أخرى داخل إسرائيل. يقوم شحادة بفحص الميزانيات التي تخصّصها مختلف الوزارات الحكومية للمستوطنات في الضفة الغربية، والتسهيلات، والإعفاءات من الضرائب الممنوحة للمستوطنين والمستوطنات. يكشف هذا التقرير عن كيفية تطبيق الحكومة في إسرائيل سياسة الرفاه الاقتصادي في المستوطنات، في مقابل اعتماد سياسة اقتصادية نيو-ليبرالية داخل إسرائيل على المستوى الوطني. بكل ما يتّصل بمشروع الاستيطان العملاق، فإنَّ الدولة لا تقوم بفحص المصروفات العامة وفق مبدأي الكفاءة والعقلانية الاقتصادية، أو استنادًا إلى منظور الربح والخسارة المادي، بل نشهد أنَّ الدولة مستعدّة لدفع أثمان اقتصادية ومالية عظيمة بُغية تحقيق أهدافها السياسية.

استمرارًا مباشرًا للتقرير البحثي أعلاه، يسعى **داني غوتڤين** إلى فحص المنطق الاقتصادي الاجتماعي السياسي القائم في صلب مشروع الاستيطان. تفتتح مقالة غوتڤين زاوية «النصوص الفكرية والنقد» في العدد الحالي، وتعتبر استمرارًا لخط فكري سبق أن عرضه ضمن نص فكري نشره في هذه المجلة قبل عقد ونيّف (٢٠٠٤).[7] قدّم غوتڤين طرحًا في ذلك النص مفاده أنَّ الانقلاب الذي طرأ سنة ١٩٧٧ (استلام قائمة "التكتل"، وعلى رأسها حزب حيروت، مقاليد الحكم بدلاً من قائمة "التجمع" وعلى رأسها حزب العمل) قد قام بتشكيل المجتمع الإسرائيلي منذ ذلك الوقت استنادًا إلى سيرورتين اثنتين تغذّت الواحدة من الأخرى، وهما: ثورة الخصخصة واستمرار الاحتلال. إنَّ تقويض دولة الرفاه قد أضرّ بصورة رئيسة بالطبقات الدنيا في المجتمع، وبغية تأمين دعمها اقترحت أحزاب اليمين المستوطنات كبديل مغرٍ للاستمرار بتقديم الخدمات الاجتماعية المقوّضة والمخصخصة في إسرائيل. ولكننا نشهد أنَّ المنظومةً البديلة هذه قد تآكلت في العقد الأخير (منذ نشر ذلك النص وحتى يومنا هذا) بصورة تدريجية، ولذلك، وفق طرح غوتڤين، قامت أحزاب اليمين بتطوير منظومة تعويض إضافية وتتمثّل في ثورة مضادة مناهضة للديمقراطية تشترط ربط الحقوق المدنية والاجتماعية بما يطلقون عليه تعبير "الولاء" للدولة – وبصورة فعلية الولاء لأحزاب اليمين. وعلى هذا النحو، يلعب المستوطنون دورًا مركزيًا في تعميق نظام الخصخصة وتعزيز الثورة المضادة المناهضة للديمقراطية ودمجهما ومأسستهما في ما يطلق عليه هذا النص تعبير "سلطة الولاء".

يستحضر كل من **ميكي كرتسمان** و**روتي غنتسبورغ**، في ملف أعمالهما والمحادثة المذيلة به، مشهدية المستوطنات الحضرية (المدينية)، التي لا تختلف عن الضواحي في مستوطنة موديعين وبلدة «غان يڤنه» وأحياء ريشون لتسيون الغربية. نشهد أنَّ البناء الزاخر بالعمارات متعدّدة الطبقات، المنتشر على طول الطرقات الواسعة، والمحاذية للمجمعات التجارية المعاصرة، لا يهدف كل هذا إلى توطين أكبر عدد ممكن السكان اليهود في الضفة الغربية فحسب، بل إلى تطبيع المستوطنات وتحويلها إلى جزء من الحيّز الإسرائيلي العادي والطبيعي ضمن ما يصطلح عليه كرتسمان وغنتسبورغ تعبير «عمارة تربوية». يتم التطبيع، من بين جملة الأمور، من خلال استخدام وسائل بصرية والمواءمة مع منظومات السوق النيو-ليبرالية. يتّحد شوق الضاحية مع دوافع التوطين (أو «دوافع الأكفال»، كما اصطلحت عليه عميره هس)[8] معًا ليشكّلا المستوطنات التي تبدو لأول وهلة غير قابلة للإخلاء لأنها مكتظّة وكثيفة وخاصة لأنها "طبيعية".

7 داني غوتڤين، ٢٠٠٤. "ملاحظات حول الأسس الطبقية للاحتلال"، **نظرية ونقد** ٢٤ (ربيع)، ص ٢٠٣-٢١١.

8 عميره هس، ٢٠٠٤. "كولونيالية بغطاء 'عملية السلام'"، **نظرية ونقد** ٢٤ (ربيع)، ص ١٩١-٢٠٢.

يذكرنا في هذا السياق كل من **درور أطكس وعميره هس** بأنَّ حقيقة أنَّ غالبية المستوطنين هم أناس «عاديون»، لا تختلف حياتهم عن حياة مواطني إسرائيل المقيمين على الجهة الغربية من الخط الأخضر، لا تقلّل من حقيقة أنَّ المستوطنات نفسها مُقامَة على أراض فلسطينية صودرت من سكانها الأصليّين، ونهب المياه وتجفيف مناطق بكاملها، والتنكيل اليومي بحياة الفلسطينيّين بواسطة تقييد الحركة ووضع الحواجز وقوات الجيش والشرطة الحاضرة هناك لحماية المستوطنات، والعنف المبطّن والجلي الذي يستخدمه بعض المستوطنين ورجال الأمن. ويوجز أطكس وهس أنه انطلاقًا من منظور الفلسطينيّين، فإنَّ أوجه التشابه بين المستوطنات الحضرية (المدينية) وبين البؤر الاستيطانية غير الشرعية أقوى من أوجه الاختلاف التي تفرّق بينها.

أما النص الذي يختتم العدد الحالي فمخصّص لميخائيل فايغه، عالم الاجتماع وعالم الأنثروبولوجيا ورئيس قسم دراسات دولة إسرائيل في جامعة بن غوريون في النقب، الذي قُتل في إحدى العمليات في تل أبيب في حزيران من العام المنصرم (٢٠١٦). يشاركنا **مورئيل رام**، أحد طلاب ميخائيل، في تخبّطه حول الإجابة الممكنة للتساؤل: كيف يمكن تخليد ذكرى إنسان لشخصه، من جهة، وبوصفه باحثًا، من جهة ثانية. إلى جانب استعراض مستفيض لأبحاث ميخائيل فايغه حول المستوطنات والمجتمع الإسرائيلي بصورة عامة، يموضع رام هذه الأبحاث ضمن خطاب «دراسة الاحتلال» في إسرائيل، ويتوقف عند الطابع المركّب الذي يفضي إلى أنَّ الكتابة حول موضوع البحث تشترك بصورة واعية وغير واعية في تشكيله كموضوع سياسي أيضًا لا موضوع بحثي فقط.

نستغل هذه الفرصة في الختام لتدوين سؤال طرحه المرحوم ميخائيل فايغه وهو: «أولم يتغلغل الصراع عميقًا في داخل اللغة، حتى بتنا أمام واقع لا نستطيع أن نتحدّث عنه من دون المشاركة فيه؟».[9] لا يسعى العدد الحالي إلى عرض مقالات جديدة حول المستوطنات فحسب، بل فحص محدوديات الخطاب واللغة وطرح زوايا نظر بحثية جديدة أيضًا. يبدو أنَّ المنظور الشكلي المهيمن للمستوطنات في الخطاب الأكاديمي والشعبي – الذي يفتقر إلى المحاولة فهم تأثيراتها السوسيولوجية والثقافية والسياسية والجغرافية على كامل الحيّز إسرائيل/ فلسطين وعلى جميع الفئات السكانية المقيمة فيه – كل هذا يفضي إلى التخبّط الدائم ضمن إطار ولغة محدّدتان سلفًا، الأمر الذي يعيق إمكانيات التغيير.

9 ميخائيل فايغه، ٢٠٠٢. **خريطتان للضفّة: غوش إمونيم والسلام الآن وبلورة الحيّز في إسرائيل**. القدس: ماغنس، ص ١٦.